

البَابُ الثَّانِي

آداب العارف

فلما فرغ من الباب الأول أشار إلى الباب الثاني فقال : وقال رضى الله عنه :

[ماترك من الجهل شيئاً من أراد أن يظهر في الوقت غير ما أظهره الله فيه] .

الجهل هو ضد العلم ، وقيل هو عدم العلم بالمقصود . وهو على قسمين : بسيط ومركب : فالبسيط أن يجهل ويعلم أنه جاهل . والمركب أن يجهل جهله ، وأقبح الجهل الجهل بالله وإنكاره بعد طلب معرفته .

قلت : من آداب العارف الحقيقي أن يقر الأشياء في محلها ويسير معها على سيرها ، فكلما أبرزته القدرة للعيان فهو في غاية الكمال والإتقان ، وفي ذلك قال صاحب العينية رضى الله عنه ..

وَكُلُّ قَبِيحٍ إِنْ نَسَبْتَ لِحُسْنِهِ
أَتَتْكَ مَعَانِي الْحُسْنِ فِيهِ تُسَارِعُ
يُكْمَلُ نُقْصَانُ الْقَبِيحِ جَمَالُهُ
فَمَا تَمَّ نُقْصَانٌ وَلَا تَمَّ بَاشِعٌ

وقال أبو الحسن النُّورى رضى الله عنه : مراد الله من خلقه ما هم عليه ، فإذا أقام الله عبداً في مقام من المقامات فالواجب على العارف أن يقره فيه بقلبه كائناً ما كان ، وإن كان لا تسلمه الشريعة رغبة في الخروج عنه بالسياسة وينظر ما يفعل الله . قال بعضهم : من عامل الخلق بالشريعة طال خصمه معهم ، ومن عاملهم بالحقيقة عذرهم . والواجب أن يعاملهم في الظاهر بالشريعة فيذكرهم ،

وفي الباطن بالحقيقة فيعذرهم . ومن أراد أن يظهر في الوقت غير ما أظهره الله تعالى في نفسه أو في غيره فقد جمع الجهل كله ولم يترك منه شيئاً ، حيث عارض القدر ونازع القادر ، وقد قال تعالى :

(إِنَّ رَبَّكَ فَاعِلٌ لِّمَا يُرِيدُ)^(١) (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ)^(٢) (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)^(٣) .

وفي بعض الأخبار : يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : « مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَائِي ، وَلَمْ يَضِرْ عَلَى بَلَائِي ، فَلْيُخْرِجْ مِنْ تَحْتِ سَمَائِي وَلْيَتَّخِذْ رَبًّا سِوَايَ » .

وقال عبد الله بن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما : لأن الحس جمة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحب إلى من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن ، أو لشيء لم يكن ليته كان .

وقال أبو عثمان رضي الله عنه : منذ أربعين سنة ما أقامني الله تعالى في حال فكرهته ، ولا نقلني إلى غيره فسخطته .

وقال شيخ شيوخنا سيدي علي رضي الله عنه في كتابه : من عرف أهل حقائق الظاهر ولم ينكر عليهم شيئاً من أحوالهم يظفر بما في أيديهم ولا يمنع خيرهم قطعاً ، ومن عرف أهل حقائق الباطن ولم ينكر عليهم شيئاً من أحوالهم يظفر بما في أيديهم على كل حال ولا يمنع خيرهم قطعاً . والعارف بالله يجمع بين خير الفرقتين يصطحب معها جميعاً ، وكل فرقة يتلون على لونها كشيخ شيوخنا رضي الله عنهم سيدي أحمد اليماني ، نفعنا الله به ، كان رضي الله عنه ممن لا ينكر حالا من أحوال الخلق أهل الظاهر ، يتلمذهم في ظواهرهم ويدفعهم إليها ويقرهم فيها ، وأهل البواطن يتلمذهم في بواطنهم ويدفعهم إليها ويقرهم فيها ، فحصل له خير الفرقتين بما رزقه الله من المعرفة والحكمة .

قيل إن الولي الكامل يتطور بجميع الأطوار يقضي جميع الأوطار اهـ .

(٢) الأنعام : ١١٢ .

(١) هود : ١٠٧ .

(٣) يونس : ٩٩ .

قلت : ومن تأمل الأحاديث النبوية وجدها على هذا المنوال ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان سيد العارفين وقدوة المربين ، فكان يقر الناس على ما أقامهم الله في حكمتهم ويرغبهم فيها ، فلذلك تجد الأحاديث متعارضة ولا تعارض في الحقيقة ، فإذا نظرت في أحاديث الذكر قلت لا أفضل منه ، وإذا نظرت في أحاديث الجهاد قلت لا أفضل منه ، وإذا نظرت في أحاديث فضل العلم قلت لا أفضل منه ، وإذا نظرت في أحاديث الزهد والتجريد من أسباب الدنيا قلت لا أفضل منه ، وإذا نظرت في أحاديث الكسب والخدمة على العيال كذلك ، فكل حكمة رغب النبي صلى الله عليه وسلم فيها حتى تقول لا أفضل منها ، تطيباً لخاطر أهلها ، ليكونوا فيها على بينة من ربهم ، ولم يأمرهم عليه الصلاة والسلام بالانتقال عنها ، إذ مراد الله منهم هو تلك الحكمة فأقرهم عليه الصلاة والسلام عليها ، ورغبهم فيها حتى يظن من يسمع أحاديثها أنه لا أفضل منها وهو كذلك ، إذ لا أفضل منها في حق أهلها .

والحاصل : أن العارف لا ينكر شيئاً ولا يجهل شيئاً ، وقد قال بعض العارفين : ليس في الإمكان أبدع مما كان . وتأويله أن ماسبق في علم الله يكون لا يمكن غيره فلا أبدع منه وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله ، والله تعالى أعلم ، تم ذكر الأدب الثاني من آداب الحضرة القدسية ، وهي ترك الرعونات البشرية فقال :

[إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفوس] .
الإحالة على الشيء : هو تسليطه وإغراؤه عليه ، والمراد هنا توقف الأمر عليه ، بحيث لا يتوجه له حتى يتيسر وجوده ، والفراغ من الشيء : خلوه منه ، وفراغ القلب : خلوه مما يشغله ، وفراغ الجوارح : خلوها من الأشغال ، والرعونة : نوع من الحمق .

من آداب العارف أن يكون كامل العقل ثاقب الذهن . ومن علامة العقل انتهاز الفرصة في العمل ، ومبادرة العمر غير تسويف ولا أمل ، إذ مافات منه لا عوض له ، وما حصل لا قيمة له . وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« أَلَا وَإِنَّ مِنْ عَلَامَةِ الْعَقْلِ التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ ، وَالْإِنَابَةَ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ وَالتَّزُودَ لِسُكْنَى الْقُبُورِ ، وَالتَّأَهُبَ لِيَوْمِ النُّشُورِ » .
 وقال صلى الله عليه وسلم : « الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي » اهـ .

والكيس : هو العاقل . ودان نفسه : حاسبها .

وفي صحف إبراهيم عليه السلام : وعلى العاقل مالم يكن مغلوباً على عقله أن تكون له ساعات ، ساعة ينجى فيها ربه عز وجل ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فيها في صنع الله عز وجل ، وساعة يخلو فيها بحاجته من المطعم والمشرب . وعلى العاقل ألا يكون ظاعناً إلا لثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة من غير محرم ، وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه ، مقبلاً على شأنه ، حفاظاً للسان . ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه اهـ .

فإحالتك الأعمال وتأخيرها إلى وقت آخر تكون فيه فارغ القلب أو القالب من علامة الرعونة والحمق ، وهو غرور ، ومن أين لك أن تصل إلى ذلك الوقت والموت هاجم عليك من حيث لا تشعر ؟ وعلى تقدير وصولك إليه لاتأمن من شغل آخر يعرض لك ، وفراغ الأشغال من حيث هو نادر لقوله عليه الصلاة والسلام : « نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصَّحَّةُ ، وَالْفَرَاغُ » .

أى كثير من الناس فقدوها وغبنوا فيها ، إذ كثير منهم لا تجده إلا مشغولاً بدنياً ، أو مفتوناً بهوى ، أو مريضاً مبتلى . ومفهوم الكثير أن القليل من الناس رزقهم الله الصحة والفراغ ، فإن عمروهما بطاعة مولاهم فقد شكروا وربحوا ربحاً عظيماً ، وإن ضيعوهما فقد خسروا خسراناً مبيناً . وكفروا بهاتين النعمتين ، فجدير أن تُسلبا عنهما ، وهو أيضاً من علامة الخذلان ، وسيأتى من كلام الشيخ : الخذلان كل الخذلان أن تقل عوائقك ثم لا تقبل عليه ، فالواجب على الإنسان أن يقطع علاقته وعوائقه ، ويخالف هواه ، ويبادر إلى خدمة مولاه ، ولا ينتظر وقتاً آخر ؛ إذ الفقير ابن وقته ، فلا تجده مشغولاً إلا بفكرة أو نظرة

أو ذكر أو مذاكرة أو خدمة شيخ يوصله إلى مولاه . وقد قلت لبعض الإخوان :
الفقر الصديق ليس له فكرة ولا هدره إلا في الحضرة أو ما يوصله للحضرة ،
والله تعالى أعلم .

ثم ذكر الأدب الثالث : وهو إقامته حيث أقامه الله ، فقال :
[لا تطلب منه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيها سواها ، فلو أرادك
لاستعملك من غير إخراج] .

قلت : من آداب العارف الاكتفاء بعلم الله والاستغناء به عما سواه ، فإذا
أقامه الله تعالى في حالة من الأحوال فلا يستحقها ويطلب الخروج منها إلى
حالة أخرى ، فلو أراد الحق تعالى أن يخرجك من تلك الحالة ويستعمله فيها هواها
لاستعمله من غير أن يطلب منه أو يخرجك ، بل يكت على ما أقامه فيه الحق تعالى
حتى يكون هو الذى يتولى إخراجك كما تولى إدخاله :

(وَقُلْ رَبِّ ادْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ)^(١) .

فالمدخل الصدق : هو أن تدخل فيه بالله ، والمخرج الصدق : هو أن تخرج
منه بالله وهذا هو الفهم عن الله ، وهو من علامة تحقق المعرفة بالله ، فالعارف
بالله إذا كان أعزب لا يتمنى التزويج ، وإذا كان متزوجاً لا يتمنى الفراق ، وإذا
كان فقيراً لا يتمنى الغنى ، وإذا كان غنياً لا يتمنى الفقر ، وإذا كان صحيحاً
لا يتمنى المرض . وإذا كان مريضاً لا يتمنى الصحة وإذا كان عزيزاً لا يتمنى
الذل ، وإذا كان ذليلاً لا يتمنى العز ، وإذا كان مقبوضاً لا يتمنى البسط ، وإذا
كان مبسوطاً لا يتمنى القبض . وإذا كان قوياً لا يتمنى الضعف ، وإذا كان ضعيفاً
لا يتمنى القوة ، وإذا كان مقيماً لا يتمنى السفر ، وإذا كان مسافراً لا يتمنى
الإقامة ، وهكذا باقى الأحوال ينظر ما يفعل الله به ولا ينظر ما يفعل بنفسه
لتحقق زواله ، بل يكون كالميت بين يدي الغاسل أو كالقلم بين الأصابع كما قال
صاحب العينية رضى الله عنه :

أَرَانِي كَالآلَاتِ وَهُوَ مُحَرِّكِي . أَنَا قَلَمٌ وَالْإِقْتِدَارُ أَصَابِعُ
 قال تعالى : (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ)^(١) وقال
 تعالى : (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)^(٢) .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام فقال : ياداود تريد وأريد ولا يكون إلا
 ماأريد ، فإن سلمت لى ماأريد أتيتك بما تريد ، وإن لم تسلم لى ماأريد أتعبتك
 فيها تريد ولا يكون إلا ماأريد .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى هريرة :
 « جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ » وفى حديث آخر : « جَفَّتِ الْأَقْلَامُ ،
 وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ » .

وقال شيخ شيوخنا سيدى أحمد اليمانى رضى الله عنه حين سأله أصحابه عن
 حقيقة الولاية فقال لهم : حقيقة الولاية أنه إذا كان صاحبها جالساً فى الظل
 لا تشتهى نفسه الجلوس فى الشمس ، وإذا كان جالساً فى الشمس لا تشتهى
 نفسه الجلوس فى الظل ا هـ . وهذا كله مع الاختيار دون الأمر الضرورى ، وقد
 تقدم قول شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه : من أوصاف الولي الكامل
 ألا يكون محتاجاً إلا على الحال الذى يقيمه مولاه فيه فى الوقت ، يعنى ما له
 مراد إلا ما يبرز من عنصر القدرة لا تشتهى نفسه غيره ا هـ .

قلت : فإذا تجلّى فى العارف شىء من هذه الأمور أعنى الانتقال من حال إلى
 حال فليتأن وليصبر حتى يفهم أنه من الله ، بإشارة ظاهرة أو باطنة أو هاتف
 حسى أو معنوى ، ولينصت إلى الهواتف فإن الله تعالى يخاطبه بما يفعل ، وهذا
 أمر مجرب صحيح عند العارفين حتى إنهم لا يتصرفون إلا بإذن من الله
 ورسوله ، إذ لا فرق عند أهل الجمع ، جعلنا الله منهم آمين . وهذا كله إذا كان
 الحال الذى هو فيه موافقاً للشريعة وإلا فليطلب الخروج منه بما يمكن .
 ثم ذكر الأدب الرابع : وهو رفع الهمة عن الأكوان ودوام الترقى فى مقامات
 العرفان فقال :

[ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة : الذى تطلب أمامك ، ولا تبرجت ظواهر المكنونات إلا ونادته حقائقها : إنما نحن فتنة فلا تكفر] .

همة السالك : هى القوة الباعثة له على السير ، ووقوفها مع الشيء : هو اعتقادها أن ما وصلت إليه هو الغاية أو فيه كفاية ، وهواتف الحقيقة : هى لسان حال الكشف عن عين التحقيق ، وتبرج الشيء : ظهوره فى حال الزينة لقصد الإمالة ، وظواهر المكنونات : هو ما كساها من الحسن والحكمة ، وتزيينها : هو خرق عوائدها له وانقيادها لحكمه وحقائقها : نورها الباطنى ، وهو تجلى المعنى فيها .

قلت : السالك هو الذى يشهد الأثر ، فإن كان يشهده فى نفسه فهو سالك فقط وهو فى حالة السير ، وإن كان يشهده بالله فهو سالك مجذوب . والمقامات التى يقطعها ثلاث فناء فى الأفعال ، وفناء فى الصفات ، وفناء فى الذات . أو تقول : فناء فى الاسم ، وفناء فى الذات ، وفناء فى الفناء ، وهو مقام البقاء ، ثم الترقى إلى ما لا نهاية له ، فإذا كشف للسالك عن سر توحيد الأفعال وذاق حلاوته وأرادت همته أن تقف مع ذلك المقام نادته هواتف حقيقة الفناء فى الصفات : الذى تطلب أمامك ، وإذا ترقى إلى مقام الفناء فى الصفات وكشف له عن سر توحيد الصفات ، واستشرف على الفناء فى الذات ، وأرادت همته أن تقف مع ذلك المقام نادته هواتف حقيقة الفناء فى الذات : الذى تطلب أمامك ، وإذا ترقى إلى الفناء فى الذات وكشف له سر توحيد الذات ، وأرادت همته أن تقف مع ذلك المقام نادته هواتف حقيقة فناء الفناء أو حقيقة البقاء : الذى تطلب أمامك ، وإذا وصل إلى البقاء نادته هواتف العلوم الغيبية .

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)^(١) وقد قال عليه الصلاة والسلام : « لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » .

أو تقول : إذا كشف للمريد عن الفناء فى الاسم ، وذاق حلاوة العمل

والذكر ، وأرادت همته أن تقف معها ، نادته هواتف حقائق الفناء في الذات :
الذى تطلب أمامك ، فإذا ترقى إلى مقام الفناء في الذات وذاق حلاوته ، ولم
يتمكن وقنع بذلك وأرادت همته أن تقف مع ذلك نادته هواتف حقيقة التمكين :
الذى تطلب أمامك ، وإذا تمكن ولم يطلب زيادة الترقى نادته هواتف الترقى :
الذى تطلب أمامك ، وهكذا كل مقام ينادى على ما قبله ؛
(يا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ)^(١) .

وإذا تبرجت : أى ظهرت بزینتها وحللها للسالک أو للعوارف ظواهر
المكونات بخرق عوائدها وانقيادها له ، وتصرفه فيها بهمته ، كالمشى على الماء
والطيران في الهواء ونبع الماء وجلب الطعام وغير ذلك من الكرامات الحسية ،
وأرادت همة السالك أن تقف مع ظواهرها وتشتغل بحلاوة حسنها ، نادته هواتف
المعاني الباطنة : إنما نحن فتنة لك نختبرك ، هل تقنع بها دون معرفة مالکها
ومنشئها المتجلى فيها ؟ أو تعرض عنها وتنفذ إلى نور معانيها وشهود مالکها
ومجريها ، فلا تكفر وتجدد المتجلى بها ، فتكره فتكون من الجاهلين .
وقد ضرب الساحلى في البغية مثلاً لهذه المقامات والسير فيها فقال : مثل
ذلك كملك ظهر بالمشرق مثلاً ، وأرسل لنا رسلاً بكتاب من عنده فقرءوا علينا
كتاب الملك وشوقونا إليه غاية التشويق بذكر كرمه ومحاسنه . فمن الناس من
أعرض عن طاعته والانقياد إليه وهم الكفار . ومن الناس من قبل وآمن ولم
يقدر على النهوض إلى حضرة الملك وهم عوام المسلمين ضعفاء المحبة واليقين .
ومن الناس من تشوق للملك ونهض إلى حضرته ، فقالت له الرسل نحن
نسيرك ونعرفك الطريق فتقدموا أمامهم يسرون بهم ، ثم إن الملك بنى دياراً
ومنازل ينزلونها كل منزل أعظم من الذى قبله هكذا إلى حضرته ، فإذا نزلوا
أول المنازل ورأوا حسنه وبهجته أرادوا أن يقيموا فيه ، فتقول لهم الرسل الذين
جاءوا من عند الملك : الذى تطلبون أمامكم ، فينهضونهم من ذلك المنزل ، فإذا
نزلوا الثانى وجدوه أعظم من الأول ، فيريدون أن يقيموا فيه فترحلهم الرسل

إلى ما بعد ، وهكذا يقطعون بهم المنازل منزلا منزلا حتى يوقفوهم على الملك ، فيقولون لهم ها أنتم وربكم ، فيستريحون من التعب ويتمتعون بالمجالسة والنظر ، والمراد بالرسول هنا الأنبياء الذين بعثهم الله وخلفاؤهم ممن كان على قدمهم ممن جمع بين الحقيقة والشرعية ، وهذه المنازل هي المقامات التي يقطعها المرید اهـ بالمعنى مع الاختصار لطول العهد به ، وقد أشار الششتري إلى التنبيه على عدم الوقوف مع هذه المقامات والكرامات فقال :

فَلَا تَلْتَفِتْ فِي السَّيْرِ غَيْرًا وَكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ غَيْرٌ فَاتَّخِذْ ذِكْرَهُ حِصْنًا
وَكُلُّ مَقَامٍ لَا تَقُمْ فِيهِ إِنَّهُ حِجَابٌ فَجِدِّ السَّيْرَ وَاسْتَنْجِدِ الْعَوْنَ
وَمَهْمَا تَجِدْ كُلَّ الْمَرَاتِبِ تُجْتَلَى عَلَيْكَ فَحُلْ عَنْهَا فَعَنْ مِثْلِهَا حُلْنَا
وَقُلْ لَيْسَ لِي فِي غَيْرِ ذَاتِكَ مَطْلَبٌ فَلَا صُورَةَ تُجَلَى وَلَا طُرْفَةً تُجْنَى

واعلم أن هذه الآداب التي ذكرها الشيخ في هذا الباب قد تكون خاصة بالعارف وقد يشاركه فيها غيره ، فلذلك يعبر بعبارة واسعة لتكون عامة ، لأن المرید قد يترقى إلى مقام وقد بقيت عليه بقية مما قبله فيكملها فيه ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر الأدب الخامس : وهو ترك الطلب من حيث هو ، قال فيها يأتي : ربما دهم الأدب على ترك الطلب فقال :

[طلبك منه اتهام له ، وطلبك له غيبة منك عنه ، وطلبك لغيره لقلّة حياثك منه ، وطلبك من غيره لوجود بعدك منه] .

قلت : طلبك منه يكون بالتضرع والابتهاال ، وطلبك له يكون بالبحث والاستدلال وطلبك لغيره يكون بالتعرف والإقبال ، وطلبك من غيره يكون بالتملق والسؤال .

وحاصلها أربعة : طلب الحق ومنه طلب الباطل وكلها مدخولة عند المحققين . أما طلبك منه فلوجود تهمتك له ، لأنك إنما طلبته مخافة أن يهلك أو يغفل عنك ، فإنما ينبه من يجوز منه الإغفاء ، وإنما يذكر من يمكن منه الإهمال :

(وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)^(١) - (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)^(٢)
 وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه : « مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أُعْطِيَتْهُ
 أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ » .

فالسكون تحت مجارى الأقدار أفضل عند العارفين من التضرع والابتهاال .
 وكان شيخ شيوخنا مولاي العربى رضى الله عنه يقول : الفقير الصادق لم تبق له
 حالة يطلبها، وإن كان ولا بد من الطلب فليطلب المعرفة اهـ .
 قلت : وإذا ورد منهم الدعاء فإنما هو عبودية وحكمة لا طلباً للقسمة ،
 إذ ما قسم لك واصل إليك ولو سألته أن يمنعك ما أجابك .
 وفى المسألة خلاف بين الصوفية ، هل السكوت أولى أو الدعاء ؟ والتحقيق
 أن ينظر ما يتجلى فيه وينشرح له الصدر فهو المراد منه .
 وأما طلبك له فهو دليل على غيبتك عنه بوجود نفسك ، فلو حضر قلبك
 وغبت عن نفسك ووهمك لما وجدت غيره :

أَرَاكَ تَسْأَلُ عَنْ نَجْدٍ وَأَنْتَ بِهَا وَعَنْ تِهَامَةٍ هَذَا فِعْلٌ مُتَّهِمٌ

وقال ابن المرحّل السبتي رضى الله عنه :

وَمِنْ عَجَبٍ أَنِّي أَجِنُّ إِلَيْهِمْ وَأَسْأَلُ شَوْقًا عَنْهُمْ وَهُمْ مَعِيَ
 وَتَبْكِيهِمْ عَيْنِي وَهُمْ بِسَوَادِهَا وَيَشْكُو النَّوَى قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْلَعِي

وللزفاعى رضى الله عنه :

قَالُوا أَتَنْسَى الَّذِي تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ يَا قَوْمِ مَنْ هُوَ رُوحِي كَيْفَ أَنْسَاهُ؟
 وَكَيْفَ أَنْسَاهُ وَالْأَشْيَاءُ بِهِ حَسُنَتْ مِنْ الْعَجَائِبِ يَنْسَى الْعَبْدُ مَوْلَاهُ
 مَا غَابَ عَنِّي وَلَكِنْ لَسْتُ أَبْصَرَهُ إِلَّا وَقُلْتُ جِهَارًا قُلْ هُوَ اللَّهُ

وأما طلبك لغيره : أى لمعرفة غيره فلقلة حيائك منه وعدم أنسك به . أما

وجه قلة حيائك منه ، فلأنه يناديك إلى الحضرة وأنت تفر منه إلى الغفلة ، ومثال ذلك كمن كان في حضرة الملك والملك مقبل عليه ثم يعجل هو يريد الخروج منها ويلتفت إلى غيره ، فهذا يدل على قلة حيائه وعدم اعتناؤه بالملك ، فهو حقيق بأن يطرد إلى الباب إلى سياسة الدواب ، وقد قالوا : أنكر من تعرف ، ولا تتعرف لمن لا تعرف .

وأما وجه عدم أنسك به فلأنك لو أنست به لاستوحشت من خلقه ، فلا يتصور منك طلب معرفتهم وأنت تفر منهم ، فإذا آنسك به أوحشك من خلقه وبالعكس ، والاستئناس بالناس من علامة الإفلاس .

إقبالك على الحق إديبارك عن الخلق ، وإقبالك على الخلق إديبارك عن الحق ، وقد عدوا من أصول الطريق الإغراض عن الخلق في الإقبال والإديبار . وأما طلبك من غيره فلو جود بعدك عنه ، إذ لو تحققت بقربه منك وهو كريم ما احتجت إلى سؤال غيره وهو لثيم ، وسيأتي في المناجاة : أم كيف يطلب من غيرك وأنت ما قطعت عادة الامتثال ؟

وفي بعض الكتب المنزلة : يقول الله تبارك وتعالى : إذا أنزلت بعبدى حاجة فرفعها إلى أعلم ذلك من نيته ، لو كادته السموات السبع والأرضون السبع لجعلت له من أمره فرجاً ومخرجاً ، وإذا أنزلت بعبدى حاجة فرفعها إلى غيرى أطحت الأرض من تحته وأسقطت السماء من فوقه ، وقطعت الأسباب فيما بينى وبينه ، أو كما قال لطول العهد به . فتحصل أن الأدب هو الاكتفاء بعلم الله ، والتحقيق بمعرفة الله ، والاستغناء به عما سواه ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر الأدب السادس وهو التسليم والرضا بما يجرى به القدر والقضاء فقال :

[ما من نفس تبديه إلا وله قدر فيك يُمضيه] .

قلت : النفس بفتح الفاء : عبارة عن دقيقة من الزمان قدر ما يخرج النفس ويرجع ، وهو أوسع من الطرفة ، والطرفة أوسع من اللحظة وهي رمق البصر ورده ، والقدر هو العلم السابق للأشياء قبل أن تظهر ، وهو علم أوقاتها وأماكنها ومقاديرها وعدد أفرادها ، وما يعرض لها من الكيفيات ، وما ينزل بها من الآفات .

فإذا علمت أيها الإنسان أن أنفاسك قد عمها القدر ، ولا يصدر منك ولا من غيرك إلا ما سبق به علمه وجرى به قلمه ، لزمك أن ترضى بكل ما يجرى به القضاء ، فأنفاسك معدودة ، وطرقاتك ولحظاتك محصورة ، فإذا انتهى آخر أنفاسك رحلت إلى آخرتك ، وإذا كانت الأنفاس معدودة فما بالك بالخطوات والخطرات وغير ذلك من التصرفات ، والله در القائل :

مَشِينَاهَا خُطَا كُتِبَتْ عَلَيْنَا وَمَنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ خُطَا مَشَاهَا
وَمَنْ قُسِمَتْ مَنِيَّتُهُ بِأَرْضٍ فَلَيْسَ يَمُوتُ فِي أَرْضٍ سِوَاهَا

وحقيقة الرضا : تلقى المهالك بوجه ضاحك ، وحقيقة التسليم استواء النعمة والنعيم ، بحيث لا يختار في أيهما يقيم ، وهذا هو مقام أهل الكمال الذين تحققوا بالزوال ، نفعنا الله بذكرهم ، وخرطنا في سلكهم آمين .

ثم ذكر الأدب السابع ، وهو دوام المراقبة ومواصلة المشاهدة ، فقال :

[لا تترقب فراغ الأغيار ، فإن ذلك يقطعك عن وجود المراقبة له فيما هو مقيمك فيه] .

الترقب : هو الانتظار ، والأغيار : جمع غَيْرٍ بكسر الغين ، وهو ما يغير القلب عن حاله ، والغالب استعماله فيما يغيره من حالة الكمال إلى حالة النقص . وعند الصوفية كل ما يشغل عن الحضرة ويغير القلب عنها فهو غير ، والمراقبة هي العسة على القلب لئلا يخرج من حضرة الرب ، والمراد بها في كلام الشيخ مطلق العسة ، فتصدق بمراقبة القلب كما تقدم ، وتصدق بمراقبة الروح وهي عسها على دوام الشهود ، وبمراقبة السر وهي عسته على دوام الترقى والأدب .

قلت : إذا أقامك الحق تعالى في حال يغلب فيها وجود الأغيار لغلبة الحس فيها ، كما إذا أقامك في شغل دنيوى في الظاهر لا محيد لك عنه فجاهد قلبك في العسة عليه في الحضور لئلا تسرقك الغفلة ، أو جاهد روحك في العسة عليها في دوام الشهود لئلا يسرقك الحس ، أو جاهد شرك في استمداد المواهب والعلوم لئلا يحصل في ذلك فتور ، ولا تترقب - أى - تنظر فراغ شغل يدك من تلك

الأغيار فتؤخر حضور قلبك إلى تمام شغل يدك ، فيفوتك وجود المراقبة في تلك الحال التي أقامك الحق فيها ، فيكون في حقك سوء أدب ، وفيه أيضاً تضييع ذلك الوقت وخلوه من معاملة الحق ، وصرف الأوقات لا يمكن قضاؤها .

ولقد بلغنى أن شيخ شيخنا مولاي العربى رضى الله عنه ، كان إذا رأى أصحابه في شغل وخاف عليهم أن يسرقهم الحس نادى عليهم بأعلى صوته ، أنت أنت ، تنبيهاً لهم وإيقاظاً من شهود الحس . وقد ذكر الشعرانى في العهود عن بعض أشياخه أنه كان لا يغيب عن الله ولو في حالة الجماع . وهذا شأن الاعتناء من العارفين ؛ وهذا هو جمع الجمع ، والله تعالى أعلم .

تنبيه : ليس هذا تكراراً مع ما تقدم في قوله إحالتك الأعمال على وجود الفراغ إلخ ، لأن ذلك في عمل الجوارح وهذا في عمل القلوب ، يدلك على ذلك تعبيره هنا بالمراقبة وتعبيره ثم بالأعمال والإفادة خير من الإعادة ، وبالله التوفيق .

وإذا حصلت لك المراقبة أو المشاهدة في حال الأغيار فلا تستغرب ما تراه من الأكدار لئلا يحصل لك الإنكار ، وإلى هذا أشار بقوله :
[لا تستغرب وقوع الأكدار مادمت في هذه الدار ، فإنها ما أبرزت إلا ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها] .

الاستغراب : تصوير الشيء غريباً حتى يتعجب منه . والأكدار : كل ما يكدر على النفس ويؤلمها . ومستحق وصفها : ما تستحق أن توصف به . وواجب نعتها : ما يجب أن تنعت به . قال بعضهم : الوصف يكون بالأمور اللازمة ، والنعت يكون بالعوارض الطارئة ، فالأمور اللازمة كالبياض والسواد والطول والقصر ، والعوارض كالمرض والصحة والفرح والحزن وغير ذلك ، والمراد هنا بالأوصاف ما يتكرر وقوعه كالموت والأمراض وما يقع كثيراً ، وبالنعوت ما يقل وقوعه في العادة كالفتن والهرج والزلازل لأنهم يقولون : الأوصاف لوازم والنعوت عوارض ، وقيل شيء واحد وهو الأصح .

قلت : من آداب العارف ألا يستغرب شيئاً من تجليات الحق ، ولا يتعجب من شيء منها كائنة ما كانت جلالية أو جمالية ، فإذا نزلت به نوازل قهرية ،

أو وقعت في هذه الدار أكرار وأغيار جلالية فلا يستغرب وقوع ذلك ، لأن تجليات هذه الدار جلها جلالية ، لأنها دار أهوال ومنزل فرقة وانتقال .
وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال في بعض خطبه :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّ هَذِهِ الدَّارَ دَارُ تَوَاءٍ ، أَى هَلَاكٍ ، لَا دَارَ اسْتِوَاءٍ ، وَمَنْزِلُ تَرَحٍّ ، أَى حُزْنٍ ، لَا مَنْزِلُ فَرَحٍ ، فَمَنْ عَرَفَهَا لَمْ يَفْرَحْ لِرَخَائِهَا وَلَمْ يَحْزَنْ لَشَقَائِهَا ، أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الدُّنْيَا دَارَ بُلْوٍ ، وَالْآخِرَةَ دَارَ عُقْبَى ، فَجَعَلَ بُلْوَى الدُّنْيَا لِثَوَابِ الْآخِرَةِ سَبَبًا ، وَثَوَابَ الْآخِرَةِ مِنْ بُلْوَى الدُّنْيَا عِوَضًا ، فَيَأْخُذُ لِيُعْطَى ، وَيَبْتَلِي لِيَجْزَى ، وَإِنَّهَا لَسَرِيعَةُ التَّوَيِّ وَشَيْكَةُ الْإِنْقِلَابِ ، فَاحْذَرُوا حَلَاوَةَ رَضَاعِهَا لِمَرَارَةِ فِطَامِهَا ، وَاهْجُرُوا لَذِيذَ عَاجِلِهَا لِكُرْبَةِ آجِلِهَا ، وَلَا تَسْعَوْا فِي عُمرَانِ دَارٍ قَدْ قَضَى اللَّهُ خَرَابَهَا وَلَا تُوَاصِلُوهَا وَقَدْ أَرَادَ اللَّهُ مِنْكُمْ اجْتِنَابَهَا فَتَكُونُوا لِسُخْطِهِ مُتَعَرِّضِينَ . وَلِعُقُوبَتِهِ مُسْتَحْقِقِينَ » .

وقال الجنيد رضى الله عنه : لا أستبشع مما يرد على من العالم لأنى أصلت أصلا وهو أن الدار دار همٍّ وغمٍّ وبلاءٍ وفتنةٍ ، وأن العالم كله شر .
ومن حكمه : أنه يتلقانى بكل ما أكره ، فإن تلقانى بما أحب فهو فضل وإلا فالأصل هو الأول ، وفي ذلك قيل :

يُمَثِّلُ ذُو اللَّبِّ فِي لُبِّهِ	شَدَائِدُهُ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَا
فَإِنْ نَزَلَتْ بَغْتَةً لَمْ تَرُعْهُ	لَمَّا كَانَ فِي نَفْسِهِ مَثَلَا
رَأَى الْأَمْرَ يُفْضِي إِلَى آخِرِ	فَصْنِيرٍ آخِرُهُ أَوَّلَا
وَذُو الْجَهْلِ يَأْمَنُ أَيَّامَهُ	وَيُنْسَى مَصَارِعَ مَنْ قَدْ خَلَا
فَإِنْ دَهَمَتْهُ صُرُوفُ الزَّمَا	نَ بَعْضِ مَصَائِبِهِ أَعْوَلَا
وَلَوْ قَدَّمَ الْحَزْمَ مِنْ نَفْسِهِ	لَعَلَّمَهُ الصَّبْرُ عِنْدَ الْبَلَا

قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري : يا أحمد جوعٌ قليل ،

وعرئ قليل ، وذل قليل ، وصبر قليل ، وقد انقضت عنك أيام الدنيا اهـ .
 فلا تستغرب أيها العارف ما يقع بك أو لغيرك من الأكدار مدمت مقيماً في هذه
 الدار ، لأنها ما برز فيها من التجليات الجلالية إلا ما هو مستحق أن تتصف به
 وواجب أن تتعت به ، فلا تستغرب شيئاً ، ولا تتعجب من شيء ، بل الواجب
 عليك أن تعرف الله في الجلال والجمال والحلوة والمرة . وأما إن كنت لا تعرفه
 إلا في الجمال فهذا هو مقام العوام ، والمعرفة في الجلال السكون والأدب والرضا
 والتسليم . فينبغي للفقير أن يكون كعشب السمار ، إذا جاءت حملة الوادي
 حنى رأسه ، وإذا ذهبت رفع رأسه ، وكما لا تستغرب وقوع الأكدار بحيث
 لا تحزن ولا تخف ولا تجزع ، كذلك لا تتعجب من وقوع المسار وهو الجمال
 بحيث لا تفرح ولا تبطر . فإن الجلال مقرون بالجمال ، والجمال مقرون
 بالجلال ، يتعاقبان تعاقب الليل والنهار والعارف يتلون من كل واحد منهما ،
 لا يستغرب شيئاً ولا يتعجب من شيء ، إذ كل ما يبرز من عنصر القدرة كله
 واحد ، وهذا وقع التفريق بين الصادق والصديق ، لأن الصديق لا يتعجب من
 شيء ولا يتردد في شيء وَعَدَ به ، بخلاف الصادق فقط فإنه مهما رأى شيئاً
 مستغرباً تعجب منه ، وإذا وعد بشيء قد يتردد في امتثاله ، وقد وصف الله تعالى
 السيدة مريم بالصديقية ولم يصف السيدة سارة بها ، لأنها لما بشرت بالولد على
 وجه خرق العادة استغربت وقالت : (إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ)^(١) فلذلك
 قالت لها الملائكة : (أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)^(٢) .

بخلاف مريم فلم تتعجب وإنما سألت سؤال استفهام فقط أو سألت عن وقت
 ذلك أو كيفيته هل بالتزوج أو بغيره ، والله تعالى أعلم .
 ثم ذكر الأدب الثامن وهو أن يكون تصرفه بالله ولله ومن الله وإلى الله ، وهو
 مقام الصدق الذي هو لب الإخلاص ، وإخلاص خواص الخواص فقال :
 [ما توقف مطلب أنت طالبه بربك ، ولا تيسر مطلب أنت طالبه
 بنفسك] .

التوقف : الحبس والتعذر ، والمطلب ما يطلب قضاؤه ، والتيسر : التسهيل .

قلت : إذا عرضت لك حاجة من حوائج الدنيا والآخرة وأردت أن تقضى لك سريعاً فاطلبها بالله ولا تطلبها بنفسك ، فإنك إذا طلبتها بالله تيسر أمرها وسهل قضاؤها ، وإن طلبتها بنفسك صعب قضاؤها وتعسر أمرها ؛ ولا يتوقف ويحبس أمر طلبته بربك ؛ ولا ييسر ويسهل أمر طلبته بنفسك . قال تعالى حاكياً عن سيدنا موسى عليه السلام :

(قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)^(١) .

فكل من استعان بالله وصبر في طلب حاجته كانت العاقبة له وكان من المتقين ، وقال تعالى : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)^(٢) .
أى كافيه كل ما أهمه . وقال صلى الله عليه وسلم لبعض أصحابه وهو سويد ابن غفلة :

« لَا تَطْلُبِ الْإِمَارَةَ ، فَإِنَّكَ إِنْ طَلَبْتَهَا وَكَلْتَ إِلَيْهَا ، وَإِنْ أَتَتْكَ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا » .

وعلامة الطلب بالله هو الزهد في ذلك الأمر والاشتغال بالله عنه ، فإذا جاء وقته تكون بإذن الله . وعلامة الطلب بالنفس هو الحرص والبطش إليه . فإذا تعذر عليه ، انقبض وتغير عليه ، فهذا ميزان من كان طلبه بالله وطلبه بنفسه ، فمن طلب حوائجه بالله قضيت معنى وإن لم تقض حساً ، ومن طلب حوائجه بنفسه خاب سعيه وضاع وقته ، وإن قضيت نهمته وحاجته .

وها هنا ضابط يعرف به أهل العناية من أهل الخذلان ، وأهل الولاية من أهل الخسران ذكره الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه فقال : إذا أكرم الله عبداً في حركاته وسكناته نصب له العبودية لله ، وستر عنه حظوظ نفسه ، وجعله يتقلب في عبوديته والحظوظ عنه مستورة مع جرى ما قدر له ، ولا يلتفت إليها كأنه في معزل عنها . وإذا أهان الله عبداً في حركاته وسكناته نصب له

حفظ نفسه ، وستر عنه عبوديته ، فهو يتقلب في شهواته وعبودية الله عنه بمعزل ، وإن كان يجرى عليه شيء منها في الظاهر . قال وهذا باب من الولاية والإهانة .

وأما الصديقية العظمى والولاية الكبرى ، فالحفظ والحقوق كلها سواء عند ذوى البصيرة ، لأنه بالله فيما يأخذ ويترك اهـ . نقله الشيخ زروق في بعض شروحه .

والحاصل : أن تصرفات العارف كلها بالله وتصرفات غيره كلها بالنفس ولو كانت بالله ، فالعمل بالله يوجب القربة ، والعمل لله يوجب المثوبة . العمل بالله صاحبه داخل الحجاب في مشاهدة الأحياء ، والعمل لله يوجب الثواب من وراء الباب . العمل بالله من أهل التحقيق والعمل لله من أهل التشريع . العمل لله من أهل قوله تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) .

والعمل بالله من أهل قوله تعالى : (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) .

وقال شيخ شيوخوا سيدي على رضى الله عنه : بين العمل بالله والعمل لله ما بين الدينار والدرهم اهـ . وبالله التوفيق .

النجاح في النهايات وسببه

ومن كان علمه بالله كان راجعاً إليه في كل شيء ومعتمداً عليه في كل حال ، وإليه أشار بقوله :

[من علامة الناجح في النهايات الرجوع إلى الله في البدايات] .
النجاح في الشيء : هو بلوغ القصد ، والمراد فيه ، ونجحت مطالبه إذا قضيت وبلغ منها ما أحب ، ونهاية الشيء : تمامه ، وبدايته : أوله .
قلت : إذا توجهت همتك إليها المرید إلى طلب شيء أى شيء كان ، وأردت أن ينجح أمره ، وتبلغ مرادك فيه ، وتكون نهايته حسنة ، وعاقبته محمودة ، فارجع إلى الله في بداية طلبه ، وانسلخ من حولك وقوتك، وقل كما قال عليه الصلاة والسلام :

« إِنْ يَكُنْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُمِضُهُ فَلَا تَحْرُصْ عَلَيْهِ وَلَا تَهْتَمَّ بِشَأْنِهِ ، فَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ رَبُّنَا لَمْ يَكُنْ ، فَلَوْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يُقَدِّرْهُ اللَّهُ لَكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يُقَدِّرْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ ، جَفَّتِ الْأَقْلَامُ وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ » كما في الحديث .

فإذا طلبت شيئاً وكنت معتمداً على الله ومفوضاً أمرك إلى الله تنظر ما سبق في علم الله ، كان ذلك علامة نجاح نهايتك ، وحصول مطلبك ، قضيت في الحس أو لم تقض ، لأن مرادك مع مراد الله لا مع مراد نفسك ، قد انقلبت حظوظك حقوقاً ، لا تشتهى إلا ما قضى الله ، ولا تنظر إلا ما يبرز من عند الله ، قد فنيت عن حظوظك وشهواتك ، وإن طلبت شيئاً بنفسك ، معتمداً على حولك وقوتك ، حريصاً على قضائها ، جاهداً في طلبها ، كان ذلك علامة على عدم قضائها ، وخيبة الرجاء فيها وعدم نجاح نهايتها ، وإن قضيت في الحس وكُلت إليها ، فتعبت بسببها ولم تُعن على شئونها ومآربها ، وهذا كله مجرب صحيح عند العام والخاص ، وهذه الحكمة تتميم لما قبلها وشرح لها ، والله تعالى أعلم . ثم كمل هذه المسألة بقاعدة كلية تصدق بما تقدم وبغيره ، فقال :

[من أشرقت بدايته أشرقت نهايته] .

قلت : إشراق البداية : هو الدخول فيها بالله ، وطلبها بالله ، والاعتماد فيها على الله ، مع السعى في أسبابها والاعتناء في طلبها ، قياماً بحق الحكمة ، وأدباً مع القدرة ، ويعظم السعى في السبب بقدر عظمة المطلب فبقدر المجاهدة تكون بعدها المشاهدة :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)^(١) (إِنْ رَحْمَةُ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)^(٢) .

فمن رأيناه في بدايته جاذاً في طلب الحق ، معرضاً عن الأُنس بالخلق ،

مستغرقاً في خدمة مولاه ، ناسياً لحظوظه وهواه ، علمنا أن نهايته مشرقة ، وعاقبته محمودة ، ومآربه مقضية ومن رأيناه مقصراً في طلب مولاه ، لم يخرج عن نفسه وهواه ، علمنا أنه كاذب في دعواه ، فنهايته الحرمان ، وعاقبته الخذلان ، إلا أن يتداركه الكريم المنان . هذا في طريق الوصول إلى حضرة الحق .
وأما إشراق البداية في طلب حوائج الدنيا أو المقامات أو المراتب أو الخصوصية مثلاً ، فهو بالزهد فيها والإعراض عنها ، والاشتغال بالله عنها . قال بعضهم : لا تدرك المراتب إلا بالزهد فيها .

قال الشيخ أبو الحسن : كنت أنا وصاحب لي نعبد الله في مغارة ونقول في هذا الشهر يفتح الله علينا ، في هذه الجمعة يفتح الله علينا ؛ فوقف على باب المغارة رجل عليه سمات الخير فقال : السلام عليكم فرددنا عليه السلام وقلنا له : كيف أنت ؟ فنهض علينا وقال : كيف يكون حال من يقول : في هذا الشهر يفتح الله ، في هذه الجمعة يفتح الله ، لا فتح ولا فلاح ، هلا عبدنا الله كما أمرنا ؟ ثم غاب عنا ، ففهمنا من أين أخذنا ، فرجعنا على أنفسنا باللوم ، ففتح الله علينا اهـ بالمعنى ذكره في التنوير. فمن طلب الخصوصية كان عبد الخصوصية وفاته حظه من الله حتى يتوب . ومن كان عبد الله نال حظه من العبودية ، وأدركته الخصوصية من غير التفات ولا طلب ، والله تعالى أعلم .
ثم إن هذه الأمور التي تشرق بها البداية وتكون علامة على إشراق النهاية هي أمور باطنية ، كالاعتماد على الله ، والرجوع إليه ، أو كثرة الشوق والاشتياق إليه ، ولكن لا بد من ظهور أثرها على الظاهر ، وإليه أشار بقوله :

[ما استودع من غيب السرائر ظهر في شهادة الظواهر] .

استودع أى وضع ، فالاستيداع : هو وضع الشيء في محل ليحفظ ، وغيب السرائر هو باطنها ، والمراد بالسرائر هو القلوب والأرواح ، وشهادة الظواهر : هي ظاهر الجوارح .

قلت : ما استودع الله سبحانه في القلوب وجعله فيها ، من خير أو شر ، من نور أو ظلمة ، من علم أو جهل ، من رحمة أو قسوة ، من بخل أو شح ، أو كرم وسخاء ، وقبض وبسط ، ويقظة أو غفلة ، ومعرفة أو نكران ، أو غير

ذلك من الأخلاق المحمودة أو المذمومة ، لا بد أن يظهر آثار ذلك على الجوارح ، من أدب وتهذيب ، وسكون وطمأنينة ورزانة ، وبذل وعفو ، أو طيش وقلق وغضب ، وغير ذلك من الأحوال القلبية والأعمال القلبية قال تعالى :
 (تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ)^(١) وقال تعالى : (سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ)^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سَرَّ سَرِيرَةً كَسَاهُ اللَّهُ رِدَاءَهَا » .

فأفعال الجوارح تابعة لأحوال القلوب ، فمن أودع في سر غيبه معرفة مولاه لم يطلب مَنْ سواه ؛ ومن أودع في سر غيبه الجهل بمولاه تعلق بما سواه ، وهكذا أحوال الظاهر تابعة لأحوال الباطن ، كما تقدم في قوله : تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال .

فالأسرة تدل على السريرة ، والكلام صفة المتكلم ، وما فيك ظهر على فيك : « وكل إناء بالذى فيه يرشح » وما خامر القلوب فعلى الوجوه أثره ، والله تعالى أعلم .

وأعظم ما استودع في غيب السرائر معرفة الله . وهى على قسمين : معرفة البرهان ومعرفة العيان ، أشار إلى الفرق بينهما فقال :
 [شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه ، المستدل به عرف الحق لأهله ، فأثبت الأمر من وجود أصله ، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه ، وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه ؟ ومتى بعد حتى تكون الآثار هى التى توصل إليه] .

شتان : بمعنى بعد وافتراق ، ولا تكون إلا فى افتراق المعانى دون الحسيات . قلت : اعلم أن الحق سبحانه لما أراد أن يتجلى بأسرار ذاته وأنوار صفاته أظهر بقدرته قبضة من نوره الأزل ، فاقتضت القدرة ظهور آثارها وشهود أنوارها ، واقتضت الحكمة إسدال حجابها وإظهار أستارها ، فلما أفرغت القدرة نورها فى مظاهر الكون أسدلت عليها الحكمة رداء الصون ، فصارت الأكوان كلها نوراً فى حجاب مستور .

ثم إن الحق سبحانه قسم الخلق قسمين وفرقهم فرقتين : قسم اختصهم بمحبته وجعلهم من أهل ولايته ، ففتح لهم الباب ، وكشف لهم الحجاب ، فأشهدهم أسرار ذاته ، ولم يحجبهم عنه بآثار قدرته . وقسم أقامهم لخدمته ، وجعلهم من أهل حكمته ، أسدل عليهم حجاب الوهم ، وغيب عنهم نور العلم والفهم ، فوقفوا مع ظواهر القشور ولم يشهدوا بواطن النور ، مع شدة الظهور ، فسبحان من أخفى سره بحكمته ، وأظهر نوره بقدرته . فأما أهل المحبة وهم أهل الولاية والعرفان ، من أهل الشهود والعيان ، فهم يستدلون بالنور على وجود الستور ، فلا يرون إلا النور ، وبالحق على وجود الخلق فلا يجدون إلا الحق ، وبقدرته على حكمته فوجدوا قدرته عين حكمته ، وحكمته عين قدرته ، فغابوا بشهود الحق عن رؤية الخلق ، إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه ، وأما أهل الخدمة من أهل الحكمة فهم يستدلون بظهور الستور على وجود النور ، وبالخلق على وجود الحق ، غابوا عنه في حال حضوره ، وحجبوا عنه بشدة ظهوره .

قال بعض العارفين : أثبت الله تعالى للعامة المخلوق فأثبتوا به الخالق ، وأثبت للخاصة نفسه فأثبتوا به المخلوق اهـ . فشتان : أى فرق كبير بين من يستدل به على ظهور أثره ، وبين من يستدل بظهور أثره على وجوده ، لأن من يستدل به عرف الحق وهو الوجود الحقيقي لأهله : أى لمن هو أهل له ويستحقه وهو الله الواجب الوجود ، الملك المعبود . وأثبت الأمر وهو القدم للوجود الحقيقي من وجود أصله ، وهو الجبروت الأصيل القديم الأزلى ، يعنى أن من عرف الله حتى صار عنده ضرورياً عرف الوجود إنما هو الله ، وانتفى عنه وجود ما سواه ، وأثبت القدم لأوله ومنتهاه .

أو تقول : عرف الحق وهو الوجود الأصيل لأهله وهو الله تعالى ، وأثبت الأمر وهو الوجود الفرعى من وجود أصله : أى ألحقه بأصله ، فإذا التحق الفرع بالأصل صار الجميع جبروتياً أصلياً ، ويحتمل أن يكون معناهما واحداً ، ويكون التقدير عرف الوجود الحقيقي لأهله ، وأثبت ذلك الأمر من أصله ، كقولك : عرفت هذا الحكم وأثبت به من أصله ، والله تعالى أعلم .

وأما من يستدل عليه فليعده عنه في حال قربه منه ، ولغيبته عنه في حال

حضوره معه بَعْدَهُ الوهم ، وغَيْبِهِ عدم الفهم ، وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه ، إذ هو أقرب إليك من حبل الوريد ، ومتى بعد حتى تكون الآثار الوهمية هى التى توصل إليه : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ)^(١) .

إذ أثر القدرة هو عينها ، فالصفة لا تفارق الموصوف ، إذ لا قيام لها إلا به ، ولا ظهور لها إلا منه ، وسيأتى له فى المناجاة : إلهى كيف يُسْتَدَلُّ عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك ، أَيْكون لغيرك ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك ؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟ ومتى بُعِدَتْ حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك ؟ والله تعالى أعلم .

ولما كان المستدلون بالله قد وسع عليهم دائرة العلوم ، وفتحت لهم مخازن الفُهوم ، بخلاف المستدلين عليه قد قتر الله عليهم أرزاق العلم ، بوجوب حجاب الوهم ، أشار إلى ذلك بقوله :

[لينفق ذو سعة من سعته الواصلون إليه ، ومن قدر عليه رزقه السائرون إليه] .

السعة : هى الغنى ، وقدر عليه ضيق عليه .
قلت : أما الواصلون إليه فلأنهم لما نفذت أرواحهم من ضيق الأكوان إلى فضاء الشهود والعيان .

أو تقول : لما عرجت أرواحهم من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح ، أو من عالم الملك إلى عالم الملكوت ، اتسعت عليها دائرة أرزاق العلوم ، وفتحت لها مخازن الفُهوم ، فأنفقوا من سعة غناهم جواهر العلم المكنون ، ومن مخازن كنوزهم يواقيت السر المصون ، فاتسع لهم ميدان المجال ، وركبوا أجياد البلاغة وفصاحة المقال ، فما أسرع الغنى لمن واجهته منهم العناية ، وما أعظم فتح من لحظته منهم الرعاية . إن لله رجالا من نظر إليهم سعد سعادة لا يشقى بعدها ، أبداً ، وهم أهل السر والحال . أما السائرون إلى الله فلأنهم باقون فى ضيق الأكوان ، وفى عالم الأشباح مسجونون فى سجن الوهم ، لم يفتح لهم

شيء من مخازن الفهم ، مشغولون بجهد نفوسهم ، ومعاناة تصفية قلوبهم ، مضيق عليهم في العلوم ، ومقتّر عليهم في سائر الفهوم ، فإن جدّوا في السير وصلوا ، وانتقلوا من ضيق الأكوان ، ورحلوا وتبختروا في رياض العلوم ، ورَفَلوا فظفروا بما أَمَلُوا ، واستغنوا بعد ما إن ملوا ، وإن رجعوا من الطريق أوقصّروا فقد خابوا وخسروا .

تنبيه : إن أردت أن يتسع عليك علم الأذواق فاقطع عنك مادة الأوراق ، فما دمت متكلا على كنز غيرك لا تحفر على كنزك أبداً ، فاقطع عنك المادة ، وافتقر إلى الله تفيض عليك المواهب من الله :

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ)^(١) .

إن أردت بسط المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك .
وقد قال الشيخ الدباس لتلميذه ميمونة حين تأخر عنه الفتح ، فرصده فوجده يطالع رسالة القشيري : اطرح كتابك واحفر في أرض نفسك يخرج لك ينبوع ، وإلا فاذهب عني اهـ وبالله التوفيق .

أنوار التوجه وأنوار المواجهة

ثم ذكر سبب اتساع العلوم على الواصلين دون السائرين ، وهو أن الواصلين لم يقفوا مع شهود الأنوار بل نفذوا إلى نور الأنوار ، بخلاف السائرين فإنهم واقفون مع الأنوار مفتقرون إليها مملوكون في يدها فقال :
[اهتدى الراحلون إليه بأنوار التوجه ، والواصلون لهم أنوار المواجهة .
فالأولون للأنوار وهؤلاء الأنوار لهم ، لأنهم لله لا لشيء دونه (قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون)^(٢)] .

قلت : أنوار التوجيه : هي أنوار الإسلام والإيمان ، وأنوار المواجهة ، هي أنوار الإحسان .

أو تقول : أنوار التوجيه ، أنوار الطاعة الظاهرة والباطنة ؛ وأنوار المواجهة هي أنوار الفكرة والنظرة .

أو تقول : أنوار التوجه أنوار الشريعة والطريقة ، وأنوار المواجهة أنوار الحقيقة .

أو تقول : أنوار التوجه أنوار المجاهدة والمكابدة ، وأنوار المواجهة هي أنوار المشاهدة والمكاملة ، وبيان ذلك أن الحق سبحانه إذا أراد أن يوصل عبده إليه توجه إليه أولاً بنوره حلاوة العمل الظاهر ، وهو مقام الإسلام ، فيتهدى إلى العمل ويعنى فيه ويذوق حلاوته ، ثم يتوجه إليه بنور حلاوة العمل الباطن ، وهو مقام الإيمان من الإخلاص والصدق والطمأنينة والأنس بالله ، والتوحش مما سواه ، فيتهدى إليه ويفنى فيه ، ويذوق حلاوته ، ويتمكن من المراقبة ، وهذا النور أعظم من الأول وأكمل ، ثم يتوجه إليه بنور حلاوة المشاهدة وهو عمل الروح ، وهو أول نور المواجهة ، فتأخذه الدهشة والحيرة والسكر . فإذا أفاق من سكرته ، وصحا من جذبته ، وتمكن من الشهود وعرف الملك المعبود ، ورجع إلى البقاء كان لله وبالله ، فاستغنى عن النور بمشاهدة نور النور ، لأنه صار عين النور ، فصار مالكاً للأنوار بعد أن كانت مالكة له ، لافتقاره لها قبل وصوله إلى أصلها ، فلما وصل صار عبد الله حراً مما سواه ، ظاهره عبودية ، وباطنه حرية .

والحاصل : أن المريد مادام في السير فهو يتهدى بأنوار التوجيه ، مفتقراً إليها لسيره بها ، فإذا وصل إلى مقام المشاهدة حصلت له أنوار المواجهة فلم يفتقر إلى شيء ، لأنه لله لا لشيء دونه ، فالراحلون وهم السائرون للأنوار ، لافتقارهم إليها وفرحهم بها ، وهؤلاء الواصلون الأنوار لهم لاستغنائهم عنها بالله ، فهم لله وبالله لا لشيء دونه ، ثم تلا الشيخ هذه الآية على طريق أهل الإشارة :

(قُلِ اللَّهُ) بقلبك وروحك ، وغب عما سواه (ثُمَّ ذَرَهُمْ) أى الناس : أى اتركهم (فى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) .

أى يخوضون فى السوى لاعبين فى الهوى . وقد اعترض بعض المفسرين على

الصوفية استشهداهم بهذه الآية ولم يفهم مرادهم .

(قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبِهِمْ)^(١) .

وكان الشيخ ابن عباد يقول : لا تجعلوا أهل الظاهر حجة على أهل الباطن اهـ . لأن أهل الباطن نظرهم دقيق وغزلهم رقيق ، لا يفهم إشارتهم غيرهم ، نفعنا الله بهم ، وخرطنا في سلكهم آمين . هذا آخر الباب الثاني . وحاصلها : آداب المعارف وعلاماته ، فالآداب ثمانية ، العلامات أربع : الرجوع إليه في كل شيء ، والاعتماد عليه في كل حال ، والغيبة فيه عن كل شيء ، والاستدلال به على كل شيء ، واتساع أرزاق العلوم ، وفتح مخازن الفهوم ، والوصل إلى مواجهة الأنوار ، والغيبة عنها بشهود الواحد القهار .